

التوق إلى الوطن الأم في الأدب الإسلامي

أ.م.د. حميد وليزاده/ عضو الهيئة العلمية لقسم اللغة العربية وآدابها والمساعد لكلية الآداب والعلوم

الإنسانية بجامعة أذربيجان لإعداد المعلمين

أ.م.د. عبد الاحد غيبي/ عضو الهيئة العلمية لقسم اللغة العربية وآدابها ورئيس قسم اللغة العربية

وآدابها بجامعة أذربيجان لإعداد المعلمين

م.م. سكينه بهرامي/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة أذربيجان لإعداد المعلمين

م.م. علي صياداني/ طالب الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران

Nostalgia to Native Land in Islamic Literature

Asst. Prof. Dr. Hameed Wali Zada / A member of the Academic Board for Arabic Language and Literature subordinated to the College of Arts and Human Sciences in the University of Azerbaijan for Teachers

Asst. Prof. Dr. Abdel Ahad Gaybi / A member of the Academic Board for Arabic Language and Literature and the head of Arabic Department in the University of Azerbaijan for Teachers

Asst. Lecturer Sukaina Bahrami / College of Arts and Human Sciences in the University of Azerbaijan for Teachers

Asst. Lecturer Ali Sayadani / A Ph.D. student of Arabic language and literature in the University of Tehran

lateracher@gmail.com

Abstract

Nostalgia to native land is still one of the main themes tackled from ancient ages in Arabic literature. Poetry of nostalgia in the pre-Islamic period is restricted to the remains of the beloved's and the tribe's homeland but in the Islamic era, the concept of poetry of nostalgia develops. This research attempts to tackle the theme of nostalgia represented by nostalgia to the beloved, native land, and the patriotic verse such as pride poetry and the elegies of martyrs with examples from the most famous poets such as Ilia abu Madhi, al-Kansa, Jameel bin Mamar, Tameem bin Abi Mukbel, al- Nabiga al- Juadi, Hassan bin Thabit al-Ansari and others. It is observable that nostalgia becomes clearer in this era.

الملخص

مازال التوق إلى الوطن الأم من الموضوعات الأساسية منذ الأزمنة القديمة في الأدب العربي، وكان شعر التوق والحنين إلى الوطن الأم يقتصر قبل الفترة الإسلامية على الأطلال والدمن التي قد بقيت من ديار الحبيبة والقبيلة، ولم يتجاوز مفهوم الوطن عن الحي والقبيلة؛ أما في العصر الإسلامي فانتسح نطاق شعر الحنين إلى الوطن.

في هذه المقالة نحاول أن نصور هذا الموضوع وتجلياته؛ كالحنين إلى الحبيبة، والحنين إلى الوطن الأم، والأشعار الوطنية كالفخر ورتاء الشهداء في الأدب الإسلامي، ونأتي بنماذج من الأشعار لأشهر الشعراء يعني إيليا أبي ماضي، والخنساء، وجميل بن معمر، وتميم بن أبي مقبل، ونابغة الجعدي، وحسان بن ثابت الأنصاري وغيرهم. إن الملاحظ في هذه المقالة يرى أنّ بصمات الحنين إلى الوطن قد راجت أيضاً في هذا العصر.

الكلمات الرئيسية: الوطن، التوق، الحنين، الأدب الإسلامي.

المقدمة:

من أسمى سمات العرب في العصر الجاهلي، هي الترحال من مكان إلى مكان آخر للحصول على موارد العيش واختلاف الثروات بين الثري والفقير وتنوع موارد الكسب عندهم. إن البعض منهم طرد من قِبَل الأسرة والقبيلة بسبب اختلاف القبيلة والتعصب في الدّم منهم الصغاليك الذين ثاروا على قبائلهم وكانوا يقومون بالإغارة في الفلوات ويرزقون ويعيشون بهذا الطريق. هذا ليس بمعنى أنهم كانوا ينسون قبيلتهم وأسرتهم بل رأينا على أساس ما طالعنا في كتب مختلفة بأن العرب رغم أنهم دائماً كانوا في السفر لكنهم يبرزون حنينهم إلى مكان مولدهم والأماكن التي كانوا يقضون مدة من أيامهم فيها أو مرّت منها حبيبته. إنّ شعر التوق والحنين في هذا العصر يقتصر على الأطلال والدمن بسبب أنّ مفهوم الوطن بمفهومه الذي يطرح في عصور أخرى يتجاوز في هذا العصر عن الحي والقبيلة؛ فلا غرو أن نسمع كذلك كان الوضع في العصر الإسلامي هكذا، ولكن بسبب الفتوحات التي قد حدثت في هذا العصر إتسع مفهوم الوطن رغم رواج الاختلافات الكثيرة في العقيدة والدين وهاجروا من مكان إلى آخر بأسباب سياسية ودينية، لكن نشاهد أشعاراً كثيرة تعبّر عن شوقهم ولوعة أنفسهم ليعُد حبيبته ووطنهم وأسرتهم ويزفرون الدّموع على آثار المحبوب بحيث تطير نحوه القلوب.

مع هذه المقدمة الموجزة سنقوم بالبحث عن الحنين إلى الوطن الأمّ في الأدب الإسلامي ولكن قبل أن نتطرّق إلى البحث الأصلي سنتحدّث عن مفهوم الحنين والوطن والغربة، والحنين إلى الوطن في العصر الجاهلي والعصور بعد الإسلام موجزاً حتى تضيء أمامنا الطريق للبحث كثيراً.

التوق والحنين لغةً واصطلاحاً:

التوق مصدر من تاق يتوق: اشتاق إليه ونزع، ويقال: تاق الشيء: اشتاقه ونزع إليه، وتاق إلى الشيء تَوْقًا وتَوْقَانًا: همّ بفعله وخفّ، وتاق عليه: عطف وحرص على إصلاح أمره، فهو تائق (ج تَوْقَة). (أنيس، إبراهيم، 1372هـ:ش:90) وأمّا بالنسبة إلى مفهوم الحنين فهو الشّديد من البكاء والطّرب، وقيل: هو صوت الطّرب عن حزن أو فرح، والحنين: الشوق وتوقان النَّفس والمعنيان المتقاربان، حنّ إليه يحنّ حنيناً فهو حانّ. والاستحنان: الاستطراب. (ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين، ج3، 1988م: 367) أمّا الحنين في الاصطلاح يعني الشوق والاشتياق إلى الوطن بما فيه من الأسرة، والأصدقاء، وعهد الطفولة والصّبا وغيرها. وهذا من طبيعة الإنسان أن يميل إلى ما يحبّه والمكان الذي يعيشه.

الوطن عند العرب لغةً واصطلاحاً:

في البحث عن مدلول كلمة «الوطن» اللغوي في المعاجم المختلفة سنصل إلى هذه النتيجة أنه بمعنى المنزل الذي يقيم فيه الإنسان، وهو موطن الإنسان ومحلّه. (ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين، ج7، 1988م: 949) وقد يستعمل أيضاً مجازاً بمعنى «مرايض»، وهذا ما قد أشار إليه ابن منظور في «لسان العرب» وزمخشري في «أساس البلاغة» بقوله: «و من المجاز: هذه أوطان الغنم: لمرايضها.» (زمخشري، جار الله، د:ت: 503) وقد أخذت منه كلمة «ميطان» وهو بمعنى «الموضع الذي يُوطنُ لترسل منه الخيل في السباق وهو أوّل الغاية، والميتاء والميتاء آخر الغاية؛ وفي رأي الأصمعي: هو الميّدان والميطان، بفتح الميم من الأوّل وكسرهما من الثّاني.» (ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين، ج7، 1988م: 949) وفي مختار الصحاح: الوطن بمعنى الأرض. (الرازي، محمد بن أبي بكر، 1995م: 303) وفي «المعجم الوجيز» جاء بمعنى «مكان إقامة الإنسان ومقرّه، إمّا ولد فيه أم لم يولد.» (مدكور، إبراهيم، 1990م: 674) وفي الاصطلاح يطلق الوطن على مكان له علاقة بعقيدة الإنسان وأن يحسّ فيه الإنسان بالأمن والقرار وقيل أيضاً: «يرتبط مفهوم الوطن بعلاقات وقيم عقائدية واجتماعية وفكرية، وكلّما اتّسعت هذه المفاهيم اتّسع مفهومه، وقد يصغّر حتّى يضمّ الأرض التي يعيش عليها المرء، وتحدها حدود مشتركة وقد يتّسع حتّى يشمل كلّ أرض يرتبط أهلها بعلاقات مشتركة.» (بيبره جكلي، زينب: 41)

التوق والحنين إلى الوطن الأم في الأدب العربي:

تكلمنا سابقاً عن مفهوم التوق، والحنين، والوطن ولا بد أن لاننسى أن الاغتراب يسبب الشوق إلى الوطن وهو الذي واجهه الإنسان من القديم. أهم سمات هذا النمط من الاغتراب لم يكن إلا الحنين إلى الوطن الأم، وهو قديم قدم الشعر العربي نفسه. وكان من أحد الموضوعات التي خيمنت في ساحة الشعر العربي منذ الجاهلية حتى المعاصر. هنا سنركز على تجلية هذا الحنين في أشعار بعض الشعراء وسنحاول أن نعالجها مختصراً لضيق المقام.

كما نعلم أن العرب في العصر الجاهلي دائماً كانوا يذهبون من مكان إلى مكان آخر طلباً لموارد العيش والحصول على العشب والكلأ، ولا يستقرون في مكان واحد ويتركون خلفهم آثاراً بحيث حينما يمرّون عليها فيما بعد، تثير مشاعرهم وعواطفهم. هكذا نرى أن الوطن عندهم في البداية قد تجلّى في صورة عصبية القبيلة، التفاخر، ومدح حكماء القبيلة، وأيضاً قد تجلّى بصورة الأطلال والدّمن التي قد بقيت من ديار حبيبتهم، وهم عبّروا عنها وأبرزوا حنينهم بالنسبة إليها. لنا في ذلك نماذج كثيرة منها قول امرئ القيس الذي يقول:

فقا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فَنُوضِحَ فَاَلْمِقْرَةَ لَمْ يَعْفَ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ
وَإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مَهْرَاقَةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلٍ¹ (امرؤ القيس، ديوان: 110-111)

أو قول عنتره العبسي:

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهَمٍ
يَا دَارَ عِبَلَةَ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمِّي صَبَاحاً دَارَ عِبَلَةَ وَاسْلَمِي
فَوَقَفْتُ فِيهَا نَاقَتِي وَكَأَنَّهَا فَدَنْ لَأَقْضِي حَاجَةَ الْمَلْتَمُومِ² (تبريزي، الخطيب، 2004م: 147-149)

نكتفي بهذا القول من الدكتور شوقي ضيف في هذا العصر، وهو «ما بكاء للأطلال والديار إلا الصورة الثابتة لهذا الحنين الذي نمي معهم «أي العرب» على مرّ الزمن واختلاف المنازل والأمكنة.» (حور، إبراهيم، 1989م: 45) تقدم خطوة ونصل إلى العصر العباسي وعصر الانحطاط؛ ازداد الشعر الوطني والحنين إليه فيهما؛ لأنّ الفتوحات كانت كثيرة في هذين العصرين بالنسبة إلى العصور الأخرى، وإنّ المتصفح لدواوين شعراء هذين العصرين ليرى أنّها مليئة بهذا النوع من الشعر ولاسيما في العصر العباسي الثاني. تدلّ لها آثار كثيرة حول الوطن والحنين إليه مثل «الحنين إلى الأوطان» للجاحظ. ولعلّ أروع ما قيل من هذا النوع من الشعر هو قول أبي فراس الحمداني الذي أصبح أسيراً في أيدي الروم، فماتله سيف الدولة بالفداء:

أقول وقد ناحت بفرابي حمامةً أيا جارتا هل تشعرين بحالي؟
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روجاً لديّ ضعيفاً تزدد في جسمي يُعذبُ بالي (أبوفراس، ديوان: 126)

ما أجمل تصوير الشاعر من ألمه في غربته، إنّه قد جلس قرب الشباك وحمامة فوق الشجرة؛ يخاطب الحمامة ويتكلم عن ألمه وغربته، ويريد منها أن تشاركه الهموم وتقاسمه إياها. وهذه الحمامة هي التي قد أثارت الشوق والحنين. وهذا أبوتمام شاعر العصر العباسي وهو كثير التجوال في بلدان مختلفة؛ منها مصر والشام والعراق، يبين حنينه بأجمل صورة؛ إليك هذه الأبيات منه:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل (أبوتمام، ديوان: 408)

وهذا ابن زيدون، الشاعر الأندلسي الشهير، الذي أسر على يد الروم وسجن في مدينة بطلميوس، له أشعار وطنية مليئة بالشوق إلى الوطن؛ اتسم شعره بصدق الشعور وظرافة العاطفة. نراه في هذه القصيدة يذكر قرطبة وأيام صباه فيها، ويشوق إليها ويتذكر أيضاً الأماكن التي قضى فيها أيام صباه ويقول:

تَشْتَقُ مِنْ عَرْفِ الصَّبَا مَا تَشْتَقَا
وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصَّبَا فَتَشْتَوَقَا
وَمَارَالَ لَمَعُ الْبَرْقِ لَمَا تَأَلَّفَا
بِهَيْبُ بَدْمَعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدْفَقَا

ويخاطب قرطبة ويقول:

أُقْرَبُكَ الْغَرْاءُ! هَلْ فِيكَ مَطْمَعُ
وَهَلْ كَبِدٌ حَرَى لِيُبْنِكَ تُنْفَعُ

وهل للياليك الحميدة مرجع؟ (ابن زيدون، ديوان: 12-18)

شاعرنا كان بعيداً عن حبيبته، والنسيم ولمعان البرق في السماء، والدموع جارية من عينه، هو الذي يندكره بأيام الصبا. وهذا ابن نباتة المصري الذي كان يعيش في عصر الانحطاط، وقد قاسى في غربته الشدائد فلذلك كان دائم الحنين إلى مصر وكثير الشوق إلى معاهدها؛ إليك مقتطفات من قصائده:

بِأَبِي الْخُدُودِ الْعَارِيَاتِ مِنَ الْبُكَاءِ
أَهَا لِمِصْرَ وَأَرْضِ مِصْرَ وَكَيْفَ لِي
أَلَّابِسَاتٍ مِنَ الْحَرِيرِ جَلَابِيَا
بِدِيَارِ مِصْرَ مَرَاتِعاً وَمَلَاعِبَا

(ابن نباتة، ديوان: 26)

إن الشاعر يذكر أن كل شيء في مصر يكون جميلاً ويتأوه لبعده عنه ويتذكر مراتعه وملاعبه. على ضوء ما تكلمنا عن التوق والشوق إلى الوطن نستطيع أن نقول إن دائرته كانت محدودة في تلك العصور ولكن في العصر المعاصر وفي أشعار المهجريين يتسع ويشمل أموراً كثيرة بحيث يختلف معه في كميته وكميته، وكان أول من يلفت النظر في هذا الباب هو أحمد شوقي الذي لقب بأمر الشعراء؛ أجمل ما قال فيه أحمد شوقي هو حنينه إلى مصر بعد أن ينفي مع أسرته إلى الإسبان وأقام في فندق برشلونة، ينشد فيها شعراً في الحنين إلى مسقط رأسه ومربع صباه، يقول:

اِخْتِلَافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يَنْسِي
وَصِفَا لِي مُلَاوَةٌ مِنْ شَبَابٍ
أَذْكُرَا لِي الصَّبَا وَأَيَّامَ أَنْسِي
صُورَتِ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ وَمَسَّ
عَصَفَتُ كَالصَّبَا اللَّعُوبِ وَمَرَّتْ
سِنَةٌ حُلُوءَةٌ، وَلَذَّةٌ خَلْسِ
وَسَلَا مِصْرَ هَلْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا
أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمَانُ الْمُؤَسِّي؟³

(شوقي، أحمد، ج1، 1998م: 284-285)

يريد الشاعر أن يبين كل ما عاناه من غربة ووحدة قاسية والشعور بالشوق إلى أهله ووطنه وهو وحيد في منفاه ويحن إلى وطنه ويقول: إن مر الزمن يندكره أيام الصبا والأنس ولا يستطيع أن ينسى الوطن ولو ينساه الوطن، وهو كان متوجعاً من الظلم الذي يعانيه وطنه ويكي على ملاعب شبابه وعهد صباه، ويشير أيضاً إلى أن الزمان لا يستطيع أن يداوي جرحه بل الشيء الذي يستطيع أن يداويه هو مصر فقط.

إليك قصيدة «لبنان» لإيليا أبي ماضي، نراه يعبر عن حنينه إلى الوطن في صورة حلم بديع، ويقول:

إِثْنَانِ أَعْيَا الدَّهْرَ أَنْ يُبْلِيَهُمَا
نَشْتَأْفُهُ وَالصَّيْفُ فَوْقَ هِضَابِهِ
لِبْنَانٍ وَالْأَمَلُ الَّذِي لِدُوِيهِ
وَنُجْبُهُ وَالتَّلْجُ فِي وَادِيهِ
بِقَلَانِدِ الْعِقْيَانِ تَسْتَعْوِيهِ
بِالْأَنْجُمِ الزَّهْرَاءِ تَسْتَرْضِيهِ
وَإِذَا تَمُدُّ لَهُ ذُكَاءً حِبَالَهَا
وَإِذَا تَنْقُطُهُ السَّمَاءُ عَشِيَّةً
هُنَّ اللَّوَاتِي قَدْ خَلَقْنَ لِي الْهَوَى
هَذَا الَّذِي صَانَ الشَّبَابَ مِنَ الْبَلَى

(أبوماضي، إيليا: 793)

التوق إلى الوطن الأم وتجلياته في الأدب الإسلامي:

كما نعلم أنّ الإسلام دينٌ شعاره هو الجهاد في سبيل الله، والإعانة على المستضعفين، وإنقاذ المظلومين من أيدي الظالمين والدفاع عن الوطن أمام المستكبرين. والله تعالى قد أشار بمزات إلى الهجرة والخروج عن الوطن والجهاد في سبيله، كما قال: «وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلَاهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا» (النساء/75) وفي آية أخرى قد أشار إلى منزلة المهاجرين والمجاهدين وبشّرهم بعطاء عظيم عنده وقال: «الَّذِينَ آمَنُوا وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ آجُرٌ عَظِيمٌ (22)» (التوبة) وآيات أخرى أيضاً موجودة في هذا الصدد ولكن بسبب خروج الكلام عن إطار البحث نكتفي بهذا المقدار.

وإنه لجدير بالشاعر أن ينطق بالحنين والاشتياق المبرح واللوعة القاسية بعد مرور السنين، ويجب ألا نغفل حقيقة بأن كل شيء في الغربة مسبب للحزن ومؤدّى إلى الإحساس بالوحدة والضياح والغربة ويتجلّى تأثير هذه الغربة بشكل الحنين إلى الوطن بأنواع خاصة، منها: الحنين إلى الوطن الأمّ، والحببية، والأشعار الوطنية كالثورة على المستكبرين، وتحريض القوم على الكفاح معهم، والحرية، والحنين إلى الأهل والأصدقاء وغيرها. يعتقد شوقي ضيف بأن إحساس الشوق والحنين هو نزوع شعوري بالنسبة إلى ما افتقده الإنسان وميل عجيب إلى وصاله ومنها الإخلاص والوفاء والحب. (ضيف، شوقي، 1988م:293) بعد هذا العرض جدير بأن نشير إلى أنواع هذا الحنين في شعر شعراء العصر الإسلامي.

الحب إلى الحبيبة:

لعله من المفيد في هذا البحث الإشارة ولو كانت سريعة، إلى حُب المرأة أو الحبيبة عبر العصور الماضية ثم التطرق إلى البحث عن شوقهم إليه ولاسيما في شعر شعراء العصر الإسلامي. إنّ الحُب إلى الحبيبة شيء ملحوظ عند الشعراء العرب منذ أقدم العصور، ولا يخفى علينا بأنه من الموضوعات التي كانت مع الإنسان منذ كان، ومما يجدر ذكره في هذا المقام بأن العرب يقومون بإبراز حُبهم إلى حبيباتهم بصورتين، إمّا بصورة الغزل العفيف، وهو الذي يقومون بوصف المرأة بذكر صفاتها الحميدة دون أن يخرجوا عن نطاق العفة؛ وهو يشمل الشكوى من فراقها والأمل في الوصول إليها، وإمّا بصورة غير العفيف، وهو وصف المرأة دون رعاية حدود العفة مثل ما قال امرؤ القيس حول حبيبته. يبدو أنه قد يوجد هذان النوعان في جميع العصور.

هناك نقطة أخرى نحب أن نشير إليها قبل أن تنتقل إلى نقطة أخرى وهو «أنّ الحبيبة كانت من إحدى الرموز التي انطوى تحتها أسى الحنين إلى الوطن ربّما أنّ الشاعر يحنّ إلى حبيبته التي خلفها وراءه في الوطن، إنّما يحنّ في الحقيقة إلى وطنه كلّهُ.» (داوود، أنس، 1967م:298) ولم يقتصر الحنين إلى الوطن على كلّ ما أشرنا إليه في السطور الماضية بل إنّ المغتربين قد برعوا فامتزجوا الحنين إلى الوطن بالحنين إلى الحبيبة امتزاجاً بسيطاً رائعاً؛ وهذا المفهوم هو الذي نراه لدي «عمر بن أبي ربيعة»؛ إليك بعض الأبيات من قصيدته تحت عنوان «لقاء وفراق» يبدأ بمقدمة غزلية على غرار الأقدمين، نقتطف منها:

مررتُ على أطلال زينبَ بعدها فأعولتها لو كان إعوألاً يغني

(عمر بن أبي ربيعة، ديوان: 264)

وفي مكان آخر يتذكر الشاعر أنّ تذكّار هند والتفكر حولها سبب زوال عقله وهيمانه، يقول:

فبحسبي أنّي بذكره هندٍ هائمُ العقلِ دائمُ الأحزانِ

وَ إِذَا أَحْبَبْتُهَا لِأَشْكُو إِلَيْهَا بَعْضَ مَا شَفَّنِي وَمَا قَدْ شَجَانِي

هبتها وزدّه من الحُبِّ عقلي وَعَصَانِي بِذَاتِ نَفْسِي لِسَانِي

ونسيتُ الذي جمعْتُ منَ القولِ لديها وغاب عني بياني

(نفس المصدر: 273)

نشاهد أيضاً أنه شبه حبيبه بظبية ويعاوده الأيام الماضية، وذكرها يحزنه ويملاً قلبه من الحزن والشجن ويقول :

إِنِّي اليومَ عَادَنِي أَحْزَانِي وَتَذَكَّرْتُ مَا مَضَى فِي زَمَانِي
وَتَذَكَّرْتُ ظَبِيَّةً أُمَّ رَيْمٍ صَدَعَ الْقَلْبَ ذِكْرُهَا فَشَجَانِي

(نفس المصدر: 290)

وفي قصيدة أخرى يرى الشاعر وطن المحبوب وطناً لنفسه ويقول:

هل تعرف الدَّارَ والأطْلَالَ وَالذَّمْنَ زِدْنَ الْفُؤَادَ عَلَى عِلَاتِهِ حَزْنَآ
دَارٌ لَأَسْمَاءَ قَدْ كَانَتْ تُحَلُّ بِهَا وَأَنْتَ إِذْ ذَاكَ إِذْ كَانَتْ لَنَا وَطْنَا
لم يحبب القلبُ شيئاً مِثْلَ حُبِّكُمْ وَلَمْ تَرَ الْعَيْنُ شَيْئاً بَعْدَكُمْ حَسَنآ
مَا إِنْ أُبَالِي إِذَا مَا اللَّهُ قَرَّبَكُمْ مَنْ كَانَ شَطَطَ مِنَ الْأَحْبَابِ أَوْطَعَنآ
فَإِنْ نَأَيْتُمْ أَصَابَ الْقَلْبَ نَأْيَكُمْ وَإِنْ دَنْتَ دَارَكُمْ كُنْتُمْ لَنَا سَكَنآ

(نفس المصدر: 306)

وفي مكان آخر يرمز الشاعر على أطلال الحبيبة وتريدته حزناً ويتحدث معها ويتذكر أيامه التي اقتضاها بالجزل والفرح ويتحسر عليها:

قَدْ زَادَ قَلْبِي حَزْنَآ رَسَمَ وَرَبَعَ مُحُولُ
رَبَعَ لِهِنْدٍ مُفْقِرُ قَدْ كَانَ حِينَا يَوْهَلُ
مَا إِنْ بِهِ مِنْ أَهْلِهِ إِلَّا الظُّبَاءَ الحُدُلُ
قَدْ كُنْتُ فِيهِمْ نَاعِمًا أَلَهُوْ بِهَمْ وَأَجْدُلُ

(نفس المصدر: 331-330)

وحسان بن ثابت هو الشاعر الآخر في الأدب الإسلامي، يبين أسباب البكاء ويعتبر فقدان الحبيب بليّة ويقول:

تَأْوِيَنِي لَيْلٌ بِيثْرِبٍ أَعْسُرُ وَهَمٌّ إِذَا مَا نَوَّمَ النَّاسُ مُسَهْرُ
لِذِكْرِي حَبِيْبٍ هِيَجَتْ تَمَّ عَبْرَةٌ سَفُوْحًا وَأَسْبَابُ الْبُكَاءِ التَّدَكَّرُ
بِلَاءٌ وَفِقْدَانُ الْحَبِيْبِ بَلِيَّةٌ وَكَمْ مِنْ كَرِيْمٍ يَبْتَلِي تَمَّ يَصْبِرُ

(حسان، ديوان: 107)

وحيثما طلق امرأته عمرة يقول حول حبه بالنسبة إليها ويحن إليها:

أَجْمَعْتُ عَمْرَةَ صَرْمًا فَابْتَكِرُ إِنَّمَا يَدِينُ لِلْقَلْبِ الْحَصِرُ
لَا يَكُنْ حُبِّكَ حُبًّا ظَاهِرًا لَيْسَ هَذَا مِنْكَ يَا عَمْرَ بَسِيرُ
سَأَلْتُ حَسَانَ مِنْ أحوالِهِ إِنَّمَا يَسْأَلُ بِالشَّيْءِ الْعُمُرُ
قُلْتُ أحوالِي بَنُو كَعْبٍ إِذَا أَسْلَمَ الْأَبْطَالُ عَوْرَاتِ الدُّبُرُ
رُبُّ خَالٍ لِي لَوْ أَبْصَرْتَهُ سَبِطُ الْكَفِيْنِ فِي يَوْمِ الْخَصِرِ⁴

(نفس المصدر: 123)

والشاعر الآخر هو جميل بن معمر الذي عرف بالغزل العذري، إنه يستعمل أدوات الاستفهام ويخاطب الناس بأنه قد فقد صبره في فراق الحبيبة ويقول:

أبيكي حَمَامُ الْأَيْكِ مِنْ قَدِّ إلفِهِ وَأَصْبِرُ؟ مَا لِي عَن بُثِينَةَ مِنْ صَبْرِ!
وَمَا لِي لَا أْبَيْكِ وَفِي الْأَيْكِ نَائِحٌ وَقَدْ فَارَقْتَنِي شَخْتَةُ الْكَشْحِ وَالْخَصْرِ

(جميل بن معمر، ديوان: 76)

والشاعر أيضاً يردّ قول الذين بأنه مسحور ويقول إنّه لا ينساها أبداً ويشبه حبه إليها بحبّ الإنسان إلى الخمر:

يقولون: مسحورٌ يَجُنُّ بِذِكْرِهَا وأقسِمُ ما بي من جُنونٍ ولا سِحْرِ!
وأقسِمُ لأنساكِ ما ذرَّ شارِقٌ وما هبَّ آلٌ في مُلمعةٍ قَفَرٍ
وما لاح نجمٌ في السَّماءِ مُعلَقٌ وما أوزقَ الأغصانُ من فننِ السِّدرِ
لقد شغفت نفسي بثينٍ بِذِكْرِكُمْ كما شغفَ المخمورُ يا بُثينَ، بِالْحَمْرِ

(نفس المصدر: 76)

وفي نهاية القصيدة يبرز حنينه إليها بلوعة ويقول:

ذَكَرْتُ مَقامي لَيْلَةَ البانِ قابِضاً على كَفِّ حَوراءِ المدامعِ كالبَدْرِ
فيا لَيْتَ هلَ أبيتنَّ لَيْلَةَ كَلَيْلَتنا حَتَّى نرى ساطِعَ الفَجْرِ
ولو سألْتُ مَنِي حَياتي بَدَلتُها وَجَدتُ بها إن كانَ ذلِكَ من أَمري
مَضى لي زَمانٌ، لو أخيرُ بيْنَهُ وبيْنَ حَياتي خالِداً آخِرَ الذَّهْرِ
لَقُلْتُ: ذروني ساعَةً وُثِينَةً على غَفلةِ الواشينِ ثمَّ اقطعوا عُمري

(نفس المصدر: 77)

ومن الطريف أيضاً أن هذا الشاعر يندمج حنينه إلى الحبيبة والوطن في أسلوب رائع وجميل ويتذكّر الأماكن التي

قد مرّ عنها مع الحبيبة زمناً ويريد منها أن تتذكّرها:

تَقولُ بُنيْنَةُ لَمّا رأت فَنوناً مِنَ الشَّعْرِ الأَحْمَرِ
كَبرتَ جميلٌ وأودِي الشَّبَابُ فَقُلْتُ: بُثينَ، ألا فاقصُرِي!
أَتَسينَ أيا مَنا بِاللّوي وأيامنا بِذوي الأَجْفَرِ؟
أما كَنتِ أبصَرْتيني مرَّةً لِيالي، نَحْنُ بِذِي جَهوَرِ
لِيالي أنتم لَنا جِيرةٌ ألا تَذكُرينَ؟ بلي فاذكُري!
وَإذا أنا أُعيدُ عَضُّ الشَّبَابِ أجزُّ الرِّداءَ مَعَ المُنزَرِ

(نفس المصدر: 85-86)

التوق إلى الوطن الأمّ:

لا ريب أنّ الشعراء في الاغتراب يمكن أن يؤانسوا مع أوطانهم الجديدة، ولكنهم كانوا دائمي التوق إلى مسقط رأسهم ويحنّون إليه حنّاً شديداً، لأنّ الوطن الأمّ له قيمة كثيرة، ولا يمكن بسهولة أن يتخلّى الغريب عنه وينساه، كما يشير إليه محمّد عبد العزيز الكفراوي في كتابه «تاريخ الشعر العربي» قائلاً: «تعلّقهم الشديد بالوطن أتاح لهم أن يحيوا حياة عربية وسط ما تقع عليه أعينهم من حياة حديثة ومدنية جديدة.» (الكفراوي، محمد عبد العزيز، د.ت، ج4، ص206) ربّما هناك تطرح هذه الاسئلة على ذهن القارئ البارِع؛ هل من الممكن للنسور أن تترك التحليق في الأجواء أو أن تترك فراش دورها حول الزهور؟ بالطبع لا؛ لا يمكن أن يعيش الإنسان في وطن آخر دون أن يتذكّر وطنه الأمّ ولو تصفّحنا دواوين الشعراء العرب في جميع العصور لوجدناها ملثية بذكر الأوطان ووصف جمالها والتعلّق بها، ولا يمكن أن تخلو من ذكر الوطن، وكما أشرنا إليه في مقدمة البحث أنّ في العصر الجاهلي كان الشعراء يبكون على الأطلال ويبينون شوقهم إلى الوطن والحبيبة.

ومن الطّبيعي أنّ الإنسان يرتبط بمكان مولده وحبّه ويفضّله على غيره من الأماكن، ربّما أنّ الظروف لم تكن ملائمة مع أفكاره، ولكن أجمل مكان له ووطنه الأول الذي نشأ وترعرع فيه، فكان مرتع طفولته وصباه بحيث تحسب هذه الأدوار من أجمل الأيام التي قد قضاها ويتمنّى أن تعود مرّة أخرى، ويملاً قلبه شوقاً ومحبة واحتراماً حينما يشاهد أيّ شيء وأيّ مناظر يشبه بوطنه.

لحسان بن ثابت في هذا الصدد قصيدة رائعة تصدق على هذا الأمر، إنه يستفيد من أسلوب التكرار ويتلذذ من تكرار اسم وطنه الأم وبهذا التكرار كأنه يريد أن يلتفت الإنتباه إلى ما يملأ قلبه من ألم وحسرة البعد عن الوطن؛ يقول:

وَ يَثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَا بِهَا وَإِذَا التَّبَسَّ الْأَمْرُ مِيزَانُهَا
وَ يَثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَا بِهَا إِذَا قَحَطَ الْقَطْرُ نُؤَانُهَا
يَثْرِبُ تَعْلَمُ أَنَا بِهَا إِذَا خَافَتِ الْأَوْسَ جِيرَانُهَا

(ديوان:248)

تستمر ظاهرة الحنين إلى الوطن الأم في شعر الشعراء في الأدب الإسلامي، وخير شاهد على هذا القول، كثرة الأشعار التي نُظمت في عدا العصر؛ منها قول جميل بن معمر:

أنا جميلٌ والحجازُ وَطَنِي فيه هَوِي نَفْسِي وفيه شَجَنِي

(ديوان جميل، 1993م:81)

ومنه قول ابن مكتوم وهو أخذ بدمام ناقة رسول الله وقت الهجرة فيذكر وطنه مكة ويقول:

يَا حَبْدًا مَكَّةَ مِنْ وَادِي أَرْضٌ بِهَا أَهْلِي وَأَوْلَادِي
أَرْضٌ بِهَا تَرَسَخُ أوتَارِي أَرْضٌ أَمْشِي بِهَا بِلَاهَادِي

(حور، ابراهيم، 1989م:45)

وهذا جميل بن معمر يمر على أطلال الحبيبة ويندمج الحب والتوق إلى الوطن بذكر الاماكن والحبيبة وأيام شبابه

ويقول:

إِنَّ الْمَنَازِلَ هَيَّجَتْ أَطْرَابِي وَاسْتَعْجَمْتُ آيَاتُهَا بِجَوَابِي
فَقَرًّا تَلُوحُ بِذِي اللَّجِينِ كَأَنَّهَا أَنْضَاءُ رَسَمِ أَوْ سَطُورِ كِتَابِي
لَمَّا وَقَفْتُ بِهَا الْقُلُوصُ تَبَادَرْتُ مِنْ مَيِّ الدُّمُوعِ، لِفُرْقَةِ الْأَحْبَابِ
وَذَكَرْتُ عَصْرًا، يَا بُثَيْنَةَ، شَاقَّتِي وَذَكَرْتُ أَيَّامِي وَشَرَحَ شَبَابِي

(ديوان:14)

مما لا شك فيه أن صورة الأطلال والدمن والحنين إليها ليست مقصوراً على الجاهليين بل نرى هناك الشاعر يقف متأملاً أمام الأطلال والدمن التي قد بقيت من آثار القبيلة، ويسأل عن الأماكن التي قد كانت فيها حبيبته، وهذه القطعة الرائعة قد تكون خير ما نظم تميم بن أبي مقبل:

قفا في دارِ أهلي فأسألاها وَكَيْفَ سَوَّالُ أَخْلَاقِ الدِّيَارِ
دَوَائِرُ بَيْنِ أَرْمَامٍ وَغَيْرِ كَبَاقِي الوَحْيِ فِي البَلَدِ القِفَارِ

(بديوي، أنس، 2009م:142)

الأشعار الوطنية:

قبل الغوض في البحث عن هذا الموضوع في أشعار الشعراء، يجب علينا أن نقدم تعريفاً جامعاً واضحاً عن هذا الموضوع حتى نستطيع في مراحل أخرى أن نميز الأشعار الوطنية وموضوعاتها في أشعارهم. يتحدث الدكتور أنوشه في كتابه «دانشنامه أدبي فارسي» عن الوطنية ويقول: «كل أثر منظوم أو منثور يكتب حول حب الوطن، وتكريم وتبجيل القيم، والفخر، والاكنتاب والتحسر لأجل فقد هذه القيم، يسمى الوطنية، وهي تنقسم إلى قسمين: أ) المكتوبات التي تكتب وتنتشر حينما يصاب الوطن بالمخاطرة، وموضوعاتها: الحسرة والتأسف على فقد القيم الوطنية والتذكير والتكريم.

ب) الأشعار التي تنشد لأجل تذكار الوطن وتبجيل قيمه.» (أنوشه، حسن، 1376هـ.ش، ج2: 1418) وقد جاء في كتاب «شعراءالعصبة» هكذا: «و هذه النزعة أي الحنين الطاغي إلى الوطن وأهله وأحبته كانت نزعة إنسانية أصيلة في نفس الإنسان وكان توطيد الشعور القومي في نفس الإنسان العربي من نتاج ذلك.» (الدقاق، عمر، 1987م: 203)

كثراً يشاهد هذا النوع في شعر شعراء في هذا العصر مصوّرين في أشعارهم آمال بلادهم وآلامهم، ويقومون بالبحث عن قضايا الوطن مثل التشجيع بالحرب، وتذكّار مصائب البلاد، ورتاء الشهداء، واستنهاض الهمم، وغيرها. لا بدّ أن لاننسى أنّ الوطنيّات هي تُحسب من ضرور الحنين إلى الوطن. إنّ القارئ لدواوين هؤلاء الشعراء ليرى حتماً في أشعارهم هذا النوع من الحنين بشكل واضح، ويشاهد أنّهم لم يخب سعي حنينهم إلى أهلهم وبلادهم وأصدقائهم ولم تدبّل جذوته. من أهمّ الموضوعات الوطنية التي قد وصلنا إليها بعد دراسة في دواوين شعراء هذا العصر، هي:

(أ) استنهاض الهمم والحضّ على الثورة:

الشيء الذي يجب أن لا ينسى هو أنّ الإسلام لقد غرس هذه الروح الإضطهادية والكفاح مع الأعداء في نفوس أبنائه وأكد عليهم بأن لا يصمتوا أمام الظالمين ويجب أن يقارعوا معهم ويدافعوا عن بلدتهم. قد اهتمّ الرسول الأكرم (ص) الذي قد بعث زعيماً للمسلمين في ذلك الزمن، بالوطن كثيراً؛ قوله: «حبّ الوطن من الإيمان» خير شاهد على هذا القول؛ حيث نرى فيما بعد تأثير الاهتمام بالوطن في قول أصحابه؛ منهم نابغة الجعدي حينما طلبت زوجته منه أن يبقى جانبها، منشداً:

يا بنت عمّي كتابُ الله أخرجني كرهاً وهل أمعنّ الله ما بدّلاً
فإن رجعتُ فربُّ الناس أرجعني وإن لحقتُ برّبي فابتغي بدّلاً
ما كنتُ أعزج أو أعمى فبعذرني أو ضارعاً من ضني لم يستطع حولا
(أدرشب، محمد علي، 1385هـ: 114)

ونشاهد شاعراً آخر يتألّم من أوضاع بلده ويتأوه بتلك الأيام ويشفق على أهلها من شدّة البرد فيها بحيث الناس يضعون أيديهم في جيوبهم ويحرض بصورة غير مباشرة على قيام الناس لنجاة قومه من الكوارث والمصائب ومن ضيق العيش إلى الرفاه؛ إليك بعض الأبيات من قصيدته:

وأرى بمرّو الشاهجان تتكرت أرض تتابع تلجها المذرور
إذ لا ترى ذا بزة مشهورة إلا تخال كأنه مقرر
كلتا يديه لا تزال ثوبه كلّ الشتاء كأنه مأسور
(الحموي، ياقوت، ج5، 1399هـ: 115)

وهذا نابغة الجعدي يتذكّر حال الأمم الغابرة قد هانت بعد عزّتهم حتّى يعتبروا من أوضاعهم وبيقضوا من غفلتهم؛ من قوله:

يا أيها الناس هل ترون إلى فارس بادت وخذها رغما
أمسوا عبيداً يرعون شاءكم كأنما كان ملكهم حُلماً
أو سبأ الحاضرين مأرب إذ بينون من دون سبله العرما
فمرقوا في البلاد واغترفوا الـ هوناً وذاقوا البأساء والقدا
(أدر شب، محمد علي، 1385هـ: 132)

ويظهر أنّ روح الجعدي تشربت بالإسلام فترك قومه وبقي في المدينة وجاهد بسيفه ولسانه وصوّر جهاده وتقواه في أبيات أضافها إلى رائعته التي أنشدها الرسول، قائلاً:

وجاهدتُ حتّى ما أحسُّ ومنّ معي سهيلاً إذا ما لاح ثمت غورا
أقيم على التقوى وأرضى بفعليها وكنتُ من النار المخوفة أوجرا
(نفس المصدر: 132)

ب) رثاء الشهداء

حقيق بنا أن نتعرف بأن من أجمل الأشعار الوطنية هي رثاء الشهداء ومدحهم الذين قد بذلوا أنفسهم في سبيل الوطن والقبيلة وقيمها وهو التعبير عن لوعة فراق الأحبة الذين جاهدوا واستشهدوا. ومن الأفضل أن نستمع إلى قول امين الريحاني الذي يقول: «إن الأمة التي يفادي الوطنيون بحياتهم من أجلها أمة حية لا تموت، هي أمة خالدة.» (الريحاني، امين، 1987م: 231)

لا بد أن لانسى أن الرثاء قد يكتف فيه نوع من الشوق بحيث هم يرثون قبيلتهم ويتألمون لما أصابهم من النكبات والمصائب. لمشاهدة الأكثر يجب أن تأتي بنماذج رائعة من الرثاء لبعض الشعراء، منهم الخنساء في ديوانها ترثي أباها بكلمات حزينة بحيث ننفعل بها انفعالاً شديداً، هي في قصيدتها لازالت تتذكر في ألم وحسرة ما أصابها من فراق أخيها وما أصاب أخيها من الآلام:

يُورِّقُنِي التَّنْكَرُ حِينَ أُمْسِي فَيَرْدَعُنِي مَعَ الْأَحْزَانِ نُكْسِي
عَلَى صَخْرٍ وَأَيِّ فَنَى كَصَخْرٍ لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَطِعَانِ خَلْسِ
فَلَمْ أَسْمَعْ بِهِ رُزْءًا لِحَنَّ وَلَمْ أَسْمَعْ بِهِ رُزْءًا لِإِنْسِ
أَشَدَّ عَلَى صُرُوفِ الدَّهْرِ آدَا وَأَفْضَلَ فِي الْخُطُوبِ بَغَيْرِ لَبْسِ
(الخنساء، ديوان: 190)

وتخاطب صخر قائلة:

ألا يا صخر لا أنساكَ حَتَّى أَفَارِقَ مُهْجَتِي وَيَشُقَّ رَمْسِي (نفس المصدر: 190)
ولها أبيات تسيل حزناً وألماً ورغبة جارفة، رثت من خلالها أخيها معبرة عن حنينها الجارف إليه، راحت تسرد أبياتاً:

يَذْكَرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكَرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ
فَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِيْنَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَ لَكِنْ لَا أزالُ أَرَى عَجُولًا وَنَائِحَةً تُنُوحُ لِيَوْمِ نَحْسِ

(نفس المصدر: 191)

هناك قدمت الشاعرة صورة حزينة بحيث تقطع القلوب، وتفتت الأكباد وتذيب النفوس حسرة. وفي قصيدة أخرى، تواصل الشاعرة نثت مشاعر الحارة باكياً لفراق أخيها وأبطال الحرب وتحدثت عن شجاعة أخيها بأنها هو الذي دافع عن قبيلته وحمل عبء الأمور العظيمة عن قومه في مصائبهم؛ إنها تخاطب عيونها أن تجري الدمع لأجل فراق أخيه وتقول:

يا عَيْنُ جُودِي بِالْدمِ عِ الْمَسْتَهْلَاتِ السَّوْفِجِ
فِيضًا كَمَا فَاضَ الغُرُ بَ الْمُتْرَعَاتُ مِنَ النَّوَاضِحِ
فَأَبْكِي لِصَخْرٍ إِذْ تُؤَى بَيْنَ الضَّرِيحَةِ وَالصَّفَائِحِ
السَّيِّدُ الْجَحَّاجُ وَابْنُ السَّادَةِ الشَّمِّ الْجَحَّاجِ
الْحَامِلُ النِّقْلِ المَهْمِّ مِنَ المَلِمَاتِ الفَوَاجِحِ

(نفس المصدر: 192-193)

هي تختم قصيدتها بهذه الأبيات الجميلة والمنفعلة في توصيف فضائل أخيه وتقول:

وذاك الَّذِي كُنَّا بِهِ تُشْفَى المَرِيضُ مِنَ الجَوَاحِحِ
نَرْدُ بِادِرَةِ العَدُوِّ وَنُخْوَةَ الشَّنْفِ المَكَاشِحِ

(نفس المصدر: 194)

نلاحظ في هذا البيت شدة الحسرة واللوعة التي تتبعث من أعماق القلب الذي يكابد ألم الفراق.

الفخر بالقبيلة:

إنّ الملاحظ في دراسة موضوع في ذلك الأدب يرى وجود الموقفين؛ الموقف الأول: الإحساس بالغربة والحنين إلى الوطن والأطلال والدّمن، والموقف الثاني: الفخر بالقبيلة. جدير بالذكر أنّ الواحد من مضامين الأشعار الوطنية التي لها تأثير في النفوس، هي الفخر بالقبيلة والقوم. فإنّ الفخر والتعصب إلى القبيلة والقوم هو التعبير عن نزعة فطرية للعزة والكرامة، كما هو وسيلة للدفاع الفرد عن القبيلة أمام الظلم. لا بدّ أن لانسى أنّ ذكر المحاسن والصفات الجميلة للقبيلة والقوم، والحنين إليها قد يكون قالباً واسعاً لدى الشعراء وهي أعرّ شيء في الوجود بحيث هي أهمّ ظاهرة يلاحظها الباحث المتأمل في أدب كلّ العصر. ربّما ابن خلدون هو أول شخص يتحدّث عن العصبية بمثابة تحكيم حسّ التكبر القومي والوطني. وباعتقاده العصبية توثق العلاقة بين افراد القبيلة. (الفاخوري، حنا، 1371هـ.ش: 744)

مما لا شكّ فيه أنّ الفخر إلى القبيلة والتعصب بها قد يكون من أسمى الصفات الجاهلية ويعتبر نوعاً من حبّ الوطن؛ لأنّه في العصر الجاهلي كان الاهتمام بالقبيلة كثيراً بحيث نستطيع أن نقول إنّها تعتبر وطنهم الأول، كما سبق ذكره بأنّ عيشتهم قد بني على الترحال من مكان إلى مكان آخر ولا يستقرون في مكان ثابت حتى يعتبرونه وطناً، بل المهمّ عندهم القبيلة. نحن نشاهد نماذج من الفخر في الشعر الجاهلي، ها هو عمرو بن كلثوم يتلذذ من الفخر بالقبيلة ويصف قبيلته قائلاً:

بِأَنَا مُطْعَمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَإِنَّا النَّاظِرُونَ بِحَيْثُ شِئْنَا
وَإِنَّا المَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا وَإِنَّا العَاظِمُونَ إِذَا عَصَيْنَا

(أفرايم البستاني، فؤاد، 1385هـ.ش: 136)

نلاحظ هذه الأبيات الجميلة تغلب عليها مسحة التوق والشوق ولوعة الفراق بذكر أمجاد القوم. وإذا تأملنا في دواوين الشعراء العرب في الأدب الإسلامي لرأينا حسان بن ثابت يفتخر بقبيلته وبيعض فضائل أخلاقية ومعنوية كالكرم، والشجاعة، وإعانة الآخرين التي لها قيمة كبيرة بحيث هذا الفخر أيضاً هو وسيلة للدفاع عن الوطن. في قصيدة له بعنوان «هلمّ إلينا» قد أشار بهذا الموضوع:

أولئك قومي فإن تسألني كراماً إذا الضيف يوماً ألمّ
عظامُ القُدورِ لأيسارِهِم يكبُونُ فيها المُسنِ السَنَمِ
يواسونَ مولاَهُم في العَنَى ويحمونَ جازَهُم إن ظلمُ
كانوا ملوكاً بأرضِهِم يبادونَ غضباً بأمرِ غشمِ

(ديوان: 220)

إنّه أيضاً في قصيدة أخرى يعتبر قبيلته أفضل ملوك قبل الرسول الأكرم (ص) ويزيل عنهم صفة البخل ويقول:

وَ كُنَّا مُلُوكَ النَّاسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ فَلَمَّا أتَى الإسلامُ كانَ لَنَا الفَضْلُ
وَ أَكْرَمَنَا اللهُ الَّذِي لَيْسَ غَيْرُهُ إِلَهَ بِأَيامِ مَضَتْ ما لَهَا شَكْلُ
أولئك قومي خير قوم بأسرِهِم وليسَ على معروفِهِم أبداً قُفْلُ
يربُونَ بالمعروفِ معروفَ مَنْ مَضَى فما عُدَّ من خيرِ قَومِي لَهُ أَهْلُ
إذا اخْتُبُوا لم يفجِسُوا في نَدِيهِم وليسَ على سُؤالِهِم عندهم بُحْلُ

(نفس المصدر: 193)

وهذه الخنساء بعد ما تشكو من الدهر بما أصابها من البلايا تتحسر من فقد قبيلتها وهذا الأمر يؤلمها كثيراً وتتذكر عزة قبيلتها وتحنّ إليها بلوعة تحرق القلوب، حينذاك تفخر بقبيلتها وتقول:

تَعَرَّقَنِي الدَّهْرُ نَهْساً وَحِزًّا وَأَوْجَعَنِي الدَّهْرُ قِرْعاً وَغَمْرًا
وَأَفْتَى رِجالِي فَبَادُوا مَعًا فَأَصْبَحَ قَلْبِي لَهُم مُسْتَقْرًّا

كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا جَمِيَّ يَبْقَى
وَكَانُوا سِرَاءَ بَنِي مَالِكِ
هُمُ مَنْعُوا جَارَهُمُ وَالنَّسَاءَ
إِذِ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مَنْ عَرَّ بَرًّا
وَزَيْنَ الْعَشِيرَةَ مَجْدًا وَعِرًّا
ءُ يَحْفَرُ أَحْشَاءَهَا الْخَوْفُ حَفْرًا⁵

(الخنساء، ديوان: 155-156)

وهي في قصيدة أخرى تفتخر بشجاعة أبيها وأخويها وإخوانها الديني في ساحة الحرب وتقول:

أُبْكِي أَبِي عَمْرًا بَعِينٍ عَزِيرَةٍ
وَصِنَوِي لِأَنْسَى مُعَاوِيَةَ الَّذِي
وَ صَخْرًا وَمَنْ ذَا مِثْلُ صَخْرٍ إِذَا عَدَا
أَوْلَاكَ أَهْلُ الْمَجْدِ مِنْ آلِ غَالِبٍ
قَلِيلٍ إِذَا نَامَ الْخَلِيُّ هُجُودَهَا
لَهُ مِنْ سِرَاءِ الْحَرَّتَيْنِ وَفُودَهَا
بِسَاحَتِهِ الْأَبْطَالُ قَزَمَ يَقُودَهَا
وَفِي الْعِرِّ مِنْهَا حِينَ تُنْتَى عَدِيدُهَا⁶

(نفس المصدر: 217)

وكعب بن زهير يقول في قصيدة تتبعث عن عاطفة صادقة وتتدفق عن وجدان سليم عن شجاعة قبيلته وتضحياتهم:

وَالذَائِدِينَ النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ
وَالْبَائِلِينَ نُفُوسَهُمْ لِنَبِيهِمْ
وَهُمْ إِذَا خَوَّتِ النُّجُومُ فَإِنَّهُمْ
وَهُمْ إِذَا انْقَلَبُوا كَأَنَّ ثِيَابَهُمْ
بِالْمَشْرِفِيِّ وَبِالْقَنَا الْخَطَّارِ
يَوْمَ الْهِيَاجِ وَقُبَّةِ الْجَبَّارِ
لِللَّطَائِفِينَ السَّائِلِينَ مَقَارِي
مِنْهَا تَضَوُّعُ فَأَرَةُ الْعَطَّارِ
مِنَ لَحْمِ كَوْمٍ كَالْهَضَابِ عِشَارِ (نفس المصدر: 135)

نختم الكلام بأن المنتبغ لدواوين الشعراء والدارس فيها في هذه الفترة سيجدهم عكوفين على الوطن ويدري بأنهم لم يتغير توقعهم وحنينهم إلى وطنهم قيد أنملة.

الهوامش

معنى اللغات والمصطلحات:

1. سقط: منقطع الرمل المستدق من طرفه/ اللوى: الرمل الملتوي/ الدخول وحومل: اسما الموضوعين/ توضح ومقراه: اسما الموضوعين/ لم يعف: لم يمح/ سفتحها: صبيبها/ معول: معتمد.
2. الجواء: اسم بلد في نجد/ فدن: القصر/ المتلوم: المتمكث.
3. ملاوة: فتره قصيرة من زمن/ تصورات: تخيلات/ مس: الجنون/ خلس: أخذ في خفة وخفيفة.
4. الصرم بفتح الصاد وضمها الهجر ضدّ الوصل وقوله فابتكر يريد عجل، وقوله إنمّا يدهن للقلب الحصر يريد إنمّا يدهن القلب الحصر فأدخل اللام على القلب للضرورة ويدهن يظهر خلاف ما يضرر أو يلين ويصانع/ عمر ترخيم عمرة والسرّ الخالص الحسن/ قوله يسأل بالشيء الغمر يقول إنمّا يسأل عن الشيء الغمر كما قال تعالى وسأل سائل بعذاب أي عن عذاب والغمر من قولهم فلان مغمور أي ليس بمشهور/ قوله إذا أسلم الأبطال عورات الدبر يقول إذا انهزموا؛ يعني إذا انهزم الأبطال فإنّ أخوالي بنوكعب أي معروفون بالنجدة والإقدام/ قوله سبط الكفين تقول فلان سبط الكفين بين السبوة سخي سمح الكفين، واليوم الخصر الشديد البرد يريد حسان أنّه ربّ خال لي جواد سمح في وقت الشدة والجذب.
5. تعرقتي: أي أخذ ما على عظمي من لحم بأسنانه/ النهس: الأخذ بأطراف الأسنان/ غمزا: أي نخسا وجسا وعصرا/ مستقرًا: من فعل استقرّ إذا استخفّه واستدعاه وأعجزه/ من عرّ برّ: المقصود به من غلب سلب/ حفزًا: من حفزه أي حثّه وحركه وطعنه.

6. الصنو: هو القرين، وهنا بمعنى الشقيق، وهو إما أن يكون مفعول أبكي أو مقسم به/ الحرّتان: هي أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار أو قد أرادت هنا مكان بعينها، وربما كما ناصرة سليم وحرّة واقم/ القزم: صغير الجثة قصير القامة الذي لا غناء عنده.

7. يحمون الناس ومعقدتهم في دينهم بسيوفهم المشرفية (صناعة الشام) وبالرمح (القنا) المهترّ (الخطار)/ قُبّة الجبار: الكعبة؛ يبدلون نفوسهم رهينة في الحماية لرسول الله (ص) وليبيت الله الحرام/ إذا خوت النجوم: كناية عن انقطاع المطر والجذب، فإذا كان ذلك كانوا هم أهل القرى والضيافة (المقاري)/ وإذا عادوا من ميدان القتال لأشتمّ من ثيابهم رائحة الدماء أو العرق ولكن رائحة المسك (فأرة العطار)/ إذا نزل بهم الضيف لم يخلوا عليه بأفضل وأسمى نياتهم التي توازي الهضاب علواً وسُعةً حتّى المعشّرة منها (الحامل).

النتيجة:

قد كشفت هذه الدراسة عن نتائج متعددة، منها:

1. اتّضح لنا بأنّ الأطلال والذّمن في بدايات العصر الإسلامي قد تبدو في أشعار الشعراء كالتقدماء.
2. إنّ الإنسان كان مؤمناً وواعياً أشدّ الوعي بقضايا الوطن وأمّته، وهذا الأمر يحرضه على سبيل تقدّم الوطن بأسباب مختلفة.
3. إنّ الشعراء يميلون في تفهم وحنينهم إلى نزعات واتّجاهات مختلفة، منها الاتّجاه المكاني كحنينهم إلى بلادهم أو الإنساني في الحنين إلى الحبيبة والأشعار الوطنيّة كاستنهاض القوم في سبيل الدفاع عن الوطن، ورتاء الشهداء، والفخر بالقبيلة.
4. هذه الأشعار الوطنيّة لا توجد في شعر شعراء هذا العصر فحسب بل ورد مثلها في أشعار الصعاليك الذين طردوا من القبيلة بدلائل مختلفة.
5. كثيراً ما يلوّن هؤلاء الشعراء حنينهم إلى الوطن بألوان مختلفة من الشعر الوطني كما قلنا وبعض الجوانب الإنسانيّة مثل الحز على الثورة والكفاح مع الاستبداد وغيرها التي توجد في أشعارهم كثيراً، ولها لوعة كثيرة بحيث القارئ لدواوينهم يتأثر بها وتجري الدموع من عيونه.

فهرس المصادر

أ) المصادر العربيّة

1. القرآن الكريم
2. آذارشب، محمد علي، (1385هـ.ش)، الأدب العربي وتاريخه حتّى نهاية العصر الأموي، طهران، سمت، ط1.
3. أبوماضي، إيليا، (د.ت)، ديوان إيليا أبي ماضي، حقّقه وضبطه ميرزا زهير، دار العودة.
4. الأبياري، ابراهيم، (1962م)، الوطن في الأدب العربي، دار القلم.
5. أبو فراس الحمداني، (د.ت)، ديوان أبي فراس الحمداني، تقديم عبّاس عبد الستار، دار الكتب العلميّة، بيروت.
6. أبوتمام، (1944م)، ديوان أبي تمام، بيروت، دار الكتب العربي، ط2.
7. أفرام البستاني، فؤاد، (1385هـ.ش)، المجاني الحديثة (المجلد1)، طليعة النور.
8. ابن زيدون، (د.ت)، ديوان ابن زيدون، شرحه وضبطه عمر فاروق، بيروت، دار القلم للطباعة والنشر.
9. ابن نباتة المصري، (د.ت)، ديوان ابن نباتة المصري، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
10. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم، (1988م)، لسان العرب (المجلد3،7،15)، بيروت، دار اللسان العربي.
11. إمروّ القيس، (د.ت)، ديوان إمروّ القيس، ضبطه وصحّحه مصطفى عبد الشافي، بيروت.

12. أنيس، إبراهيم؛ منتصر، عبد الحليم؛ الصوالحي، عطية؛ خلف الله أحمد، محمد، المعجم المفهرس، طهران، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ط4.
13. البحتري، (1987م)، ديوان البحتري (المجلد1)، شرحه الدكتور يوسف الشيخ محمد، بيروت، دار الكتب العلمية.
14. بدوي، عبده، (1992م)، قضايا حول الشعر (المجلد1)، الهيئة المصرية للكتاب.
15. البغدادي، شهاب الدين أبو عبدالله، (1979م)، معجم البلدان (المجلد3)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
16. بديوي، أنيس؛ طماس، حمدو؛ الطيبي، حسان، (2009م)، روائع الشعر الإسلامي، بيروت، دار المعرفة.
17. التبريزي، الخطيب، (2004م)، شرح ديوان عنتره، بيروت. لبنان، دار الكتاب العربي.
18. جميل بثينة، (1993م)، ديوان جميل بثينة، حققه محمد ناصر الدين مهدي، دار الكتب العلمية، بيروت.
19. جوزيف، إلياس، (2000م)، المجاني المصور (المجلد1)، بيروت، دار المجاني.
20. حسان بن ثابت، (د.ت)، ديوان حسان بن ثابت، حققه عبدالله مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2.
21. حفني، عبد الحليم، (1999م)، شرح لامية العرب الشنفرى، مكتبة الآداب.
22. حور، محمد إبراهيم، (1989م)، الحنين إلى الوطن حتى نهاية العصر الأموي، الإمارات المتحدّة العربية، دار القلم، ط2.
23. الخنساء، (2005م)، ديوان الخنساء، شرحه وحقّقه محمد فايز، دار الكتاب العربي، بيروت.
24. الذقاق، عمر، (1987م)، شعراء العصبية الأندلسية، بيروت، دار الشرق.
25. داوود، أنس، (1967م)، التجديد في شعر المهجر، المؤسسة المصرية العامة للنشر والتأليف.
26. الرازي، محمد بن أبي بكر، (1995م)، مختار الصحاح (المجلد7)، مكتبة لبنان، الطبعة الجديدة.
27. الريحاني، امين، (1987م)، القونيات، بيروت، دار الجيل.
28. الزبيدي، محمد مرتضي، (1425م)، تاج العروس من جواهر القاموس (المجلد2)، بيروت، دار الفكر.
29. زمخشري، جارالله أبو القاسم، (د.ت)، أساس البلاغة، بتحقيق عبدالرحيم محمود، د.ط.
30. شوقي، أحمد، (1998م)، الشوقيات، شرحه وحقّقه علي العسيلي (المجلد1)، بيروت، منشورات مؤسّسة الأعلمي.
31. ضيف، شوقي، (د.ت)، دراسات في الشعر العربي المعاصر، مصر، دار المعارف، ط4.
32. -، (1988م)، فصول في الشعر ونقده، مصر، دار المعارف، ط2.
33. عبدالله، يحيى، (2005م)، الاغتراب (دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
34. الكفراوي، محمد عبد العزيز، (د.ت)، تاريخ الشعر العربي (الجزء4)، مصر، دار نهضة.
35. الكوفي البغدادي، محمد بن سهل بن مرزبان (1987م)، الحنين إلى الأوطان، تحقيق: جليل العطية، عالم الكتب.
36. مذكور، إبراهيم، (1990م)، المعجم الوجيز، إيران. قم، دار الثقافة.

ب) المصادر الفارسية

1. أنوشه، حسن، (1376ه.ش)، دانشنامه ادبي فارسی (ج2)، تهران، سازمان چاپ وانتشارات، چاپ1.
2. زنجاني، عباسعلي، (1368ه.ش)، وطن وسرزمين من، تهران، دفتر نشر فرهنگ اسلامي.
3. الفاخوري، حنا؛ الجر، الخليل، (1371ه.ش)، تاريخ فلسفه در جهان اسلام، ترجمه عبد الحميد آيتي، تهران، دار العلم، چاپ4.

ج) المجلات

1. بيره جكلي، زينب، (2006م)، الوطن في ديوان سالم المعويس، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، طهران، رقم32، صص410-440.